الهجاء السياسي في الخطاب الشّعري الأندلسي

الدكتور: موسى مريان
قسم اللّغة والأدب العربي
كليّة الآداب واللّغات
جامعة 20 أوت 1955- سكيكدة

الملخّص:

يتطرّق هذا المقال، في جوهره، إلى نصوص شعريّة أندلسيّة هجا فيها أصحابُها حكّامَهم (خلفاء وأمراء)، في عصور مختلفة من الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيريّة (الأندلس). وتمّ تناول الأهاجي حسب ترتيبها الزّمني، ودون فصلها عن سياقاتها التّاريخيّة التي دعت إلى قولها. ويُستنتج من مناسبات تلك النّصوص ومضامينها أنّها لم تكن، في الأغلب، بدافع إحساس الشّعراء بالتّهميش والحرمان، وإنّما كانت نتيجة وعي والتزام.

والهدف من هذه الدّراسة هو تقديم فكرة عن أحد اتّجاهات الهجاء السّياسي الأندلسي (هجاء الشّعراء للحكّام)، وذلك بعرض أهمّ نصوصه، ودراستها، وتوضيح المعاني المختلفة التي دارت حولها. ولأنّ الأدب الرّفيع الخالد رؤيا وفنّ، فقد تمّ التّطرّق إلى بعض الخصائص الفنّيّة لتلك الأهاجي بصفة إجماليّة.

الكلمات المفتاحيّة: الشّعر الأندلسيّ، اتّجاهات الهجاء الأندلسي، الهجاء السّياسي في الأندلس، الاتّجاه الأخلاقي في النّقد الأدبي الأندلسيّ.

Résumé :

Le présent article étudie, fondamentalement, les textes poétiques andalous dans lesquels les auteurs ont dénigré comportements, actes et choix politiques de leurs gouverneurs (Khalifes, Emirs), pendant l'existence des arabes dans la péninsule ibérique (Al-Andalus). Les textes ont été éxposés dans leur ordre chronologique, sans être séparés de leurs contextes historiques. Il ressort des textes satiriques consultés qu'ils non pas été, le plus souvent, le fruit d'un sentiment de marginalisation et de privation, mais de la prise de conscience et de l'engagement des poètes.

L'objectif de cette étude est de donner un aperçu sur un des courants de la satire politique dans la poésie andalouse en arabe classique. Et cela en exposant les meilleurs textes

qui le présentent, et en montrant leurs significations, sans négliger leurs caractéristiques artistiques (poétiques).

Mots clés : La poésie Andalouse en arabe classique, courants de la satire politique dans la poésie andalouse, la satire politique dans la poésie andalouse, le courant éthique (morale) dans la critique littéraire andalouse.

Abstract :

The presente article studies the Andalusian poetic texts in which the authors denigrated behaviors, acts and political choices of their governors (Caliphs, Emirs), during the existence of Arabic in the Iberian Peninsula (Andalusia). Texts have been exposed chronologically and studied by taking into account their political contexts. The consulted satiric texts show that they were the fruit of a commitment and not a feeling of marginalization and hardship.

The objective of this study is to give an overwiew onto one of the currents of the political satire in the Andalusian poetry in classic Arabic. And this by exposing the best texts, and by showing their meanings, without negleting their artistic caracteristics (poetic).

Key words : The Andalusian poetry in classic Arabic, currents of the political satire in the Andalusian poetry, the political satire in The Andalusian poetry, the ethical current (morality) in the Andalusian literary critic.

أوّلاً– توطئـــة:

كلف الأندلسيّون بالشِّعْر كلفاً شديداً. وعالجه منهم شعراء وشاعرات من طبقات اجتماعيّة متباينة، وأصول مختلفة، يندّ عددهم عن الحصر، يتفاوتون فيما بينهم في مجال الاهتمام، وفي درجة الإجادة والإحسان.

وقام الحكّام، وبالأخصّ العرب منهم، بدور مهمّ في ازدهار الحركة الأدبيّة عامّة، والشّعريّة منها خاصّة، ولاسيّما في عصر ملوك الطّوائف (القرن 5 هـــ/11 م). وقد بيّن المقري شغف الأندلسيّين بالشّعر، وما

للشّعراء المطبوعين من حظوة عند الحكّام بقوله: «والشّعرُ عندهم له حظٌّ عظيم، وللشّعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف. والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقّع لهم بالصّلات على أقدارهم، إلاّ أن يختلّ الوقت، ويغلب الجهلُ في حين ما، ولكن هذا الغالب»[1].

وإذا كان سحر البلاطات قد فتن كثيراً من الشّعراء فأغراهم وانجذبوا إليه، وبالأخصّ في القرن الخامس الهجري (11م)، حين تنافس ملوك الطّوائف في اختيار الألقاب السّلطانيّة، وتشييد القصور الفخمة، وتقريب الأدباء، فوقف الشّعراء بأبوابهم، ومدحوهم وتسلّموا جوائزهم، وقبلوا وظائفهم، حتّى أنّ إدريس بن اليماني[2] بلغ به ما رآه من منافساتهم في مدائحه أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلاّ بمائة دينار[3]، فإنّنا نجد، إلى جانب أولئك المتكسّبين، شعراء آخرين قد نالوا بشعرهم من الحكّام وأصحاب السّلطة والنّفوذ، وندّدوا بأعمالهم، وشهّروا بهم.

واختلفت ردود أفعال الحكّام وأصحاب النّفوذ ممّن هجاهم. وعلى الرّغم من جنوح أكثرهم إلى الانتقام باستخدام أفظع الطّرق وأشنعها، فإنّه يمكن تمييز ثلاثة مواقف مختلفة: العفو عن الشّاعر الهاجي، وتهديده، والانتقام منه بالقتل. فممّن آثر الحكمة وصفح عمّن هجاه الصُّمَيْل بن حاتم[4] الذي هجاه أبو الأجرب جعونة بن الصِّمَّة[5] «فلمّا حصل في يده عفا عنه فنسخ هجوه بمدحه»[6]، وممّن لجأ إلى التّهديد والتّخويف ابن حجّاج أمير إشبيلية [7] فحين أخذ القلفاط[8] في هجائه بقرطبة أرسل إليه من قال له عنه: «والله الذي لا إله غيره، لئن لم تكفّ عمّا أخذت فيه لآمرنّ من يأخذ رأسَكَ فوق فراشك! فارتاع، وكَفّ»[9]. وأمّا من عاقب من هجاه وانتقم منه فكثير؛

منهم: هشام بن عبد الرّحمن الدّاخل الذي قطع لسان أبي المخشي عاصم بن زيد[10] وسمل عينيه بسبب قوله في قصيدة مدح بها أخاه سليمان[11] [الوافر]:

وَلَيْسَ كَمِثْلِ مَنْ إِنْ سِيــمَ عُرْفــاً   يُقَلِّــبُ مُقْلَــةً فيهــا اعْــــوِرَارُ

ولأنّ هشاماً كان أحول، وكانت بينه وبين أخية سليمان منافسة ومباينة [12]، توهّم على أبي المخشي أنّه عرّض به في البيت، فأشطّ في عقوبته ومثل به. ومنهم المعتمد بن عبّاد الذي باشر قتل وزيره أبي بكر بن عمّار بيده [13]، بسبب غدره به، وهجائه إيّاه [14]. ومنهم الزبير بن عمر[15] الذي أمر بقتل أبي بكر الأبيض [16] ، لهجائه إيّاه، وتجرئه عليه في مجلسه.

ولم يكن الخوف من انتقام الحكّام وبطشهم العامل الوحيد الكابح للهجاء في الأندلس، وإنّما كان إلى جانبه تشدّد أصحاب النّقد الأخلاقي من علماء الأدب الأندلسيّ ونقّاده.

وردت في بعض المصنّفات الأدبيّة وكتب التّراجم الأندلسيّة آراء نقديّة بيّن فيها أصحابها رأيهم في الشّعر وأغراضه، وسأكتفي هنا بذكر رأي ابن حزم (ت 456 هــ/1064 م) وابن بسّام الشّنترينيّ (ت 542 هــ/1147 م) في الشّعر عامّة وغرض الهجاء بصفة أخصّ.

ألّف ابن حزم رسالة بعنوان **(مراتب العلوم)** أوضح فيها أنّ أفضل العلوم ما أدّى إلى نجاة الإنسان وفوزه في الآخرة، وجرّه الموضوع إلى الحديث عن الشّعر، فدعا إلى رواية « الأشعــار التي فيها الحكــم والخيــر»[17] كشعر حسّان بن ثابت وغيره من شعراء الدّعوة الإسلاميّة (كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، ...)، ونصح باجتناب أربعة أضرب من الشّعر، وهي[18]: الإغزال والرّقيق [كذا][19]، والأشعار المقولة في التّصعلك وذكر الحروب، وأشعار التّغرّب وصفات المفاوز والبِيد والمهامه،

و**الهجاء**؛ لأنّه « يهوّن على المرء الكون في حالة أهل السّفه من كنّاسي الْحُشُوش[20]، والمعاناة لصنعة الزّمير المتكسّبين بالسّفاهة والنّذالة والخساسة، وتمزيق الأعراض، وذكر العورات، وانتهاك حرم الآباء والأمّهات، وفي هذا حلول للدّمار في الدّنيا والآخرة» [21].

لقد استند ابن حزم في رأيه، كما يلاحظ، إلى معيار ديني أخلاقي؛ لإيمانه بتأثّر الإنسان بما يحفظ ويروي. ونظر إلى أعمال الإنسان نظرة شاملة؛ ولذلك لم يفصل بين رواية الشّعر والغاية من خلق الإنسان. وجعل الهجاءَ أفسدَ الأغراض؛ لأنّ ذكر عيوب النّاس شعراً، حقّاً أو افتراءً، للتّشهير بهم، وفضحهم عنفٌ لفظيّ، يُلحق بهم أضراراً معنويّة، يكون أثرها في نفوسهم أشدَّ من الاعتداء المادي (الجسدي)، وذلك يتعارض مع مبادئ الإسلام السّمحة، وقيمه الفاضلة التي تدعو إلى مكارم الأخلاق.

ونحا ابن بسّام الشّنتريني في كتابه (الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة) منحى ابن حزم تقريباً، وأرجع، في مقدّمة الكتاب، عزوفه عن قول الشّعر والإكثار منه إلى عزّة نفسه، كما بيّن زهده في الأدب، شعـــره ونثـــره، لأنّ «أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال، جدّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل. وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم»[22]. وأمّا موقفه من الهجاء فكان أقلّ تشدّداً من موقف ابن حزم؛ لأنّه جعل الهجاء اتّجاهين: **الهجاء الصّريح الفاحش، والتّعريض**. وأقصى الاتّجاه الأوّل من كتابه (الذّخيرة)، يقول: «ولمّا صنتُ كتابي هذا عن شَيْن الهجاء، وأكبرته أن يكون ميداناً للسّفهاء، أجريتُ ها هنا طرفاً من **مليح التّعريض**، في إيجاز القريض، ممّا لا أَدَبَ[23] [كذا] على قائليه، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه»[24]. ومن التّعريض قول ابن شهيد في قصيدة خاطب بها بعض إخوانه، بعد عتاب شديد [25] [الطّويل]:

وإنّي على ما هَاجَ صَدْرِي وغاظني لَيَأْمَنَنِي مَنْ كان عنـــدي له سِـــرُّ

وقد كان وقع هذا البيت على صديقه أشدّ من عضّ الحديد، على حدّ قول ابن شهيد، ولم يزل يقلق به حتّى بكى إليه منه بالدّموع [26].

ويرى ابن بسّام، في موضع آخر من كتابه، أنّ الهجاء قسمان: **هجاء الأشراف**، و**السّباب**. فأمّا **هجو الأشراف** فهو «ما لم يبلغ أن يكون سِباباً مُقْذِعاً، ولا هجراً مُستبشعاً، وهو طأطأ قديماً من الأوائل، ونَلّ عرش القبائل، إنّما هو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير»[27]، كهجاء النّجاشي لبني العَجْلان[28]، والحطيئة للزِّبْرِقَان بن بَدْر[29]، والأعشى لعَلْقَمَة بن عُلاَثَة [30] وغيره. وهو هجاء سُلِب فيه أولئك الأشرافُ المهجوّون الفضائل النّفسيّة التي كانت العرب تعتزّ بها وتمجّدها كالكرم، والشّجاعة، والعفّة وغيرها، وقام على بعض الأساليب التي جعلته من أنكى الهجاء وأشدّه كالتّفضيل، والتّشكّك، والتّجاهل.

وأمّا **السّباب** فهو **الهجاء الصّريح الفاحش**، وعدّه ابن بسّام من (شَيْن الهجاء)، ونبز أصحابه بالسّفهاء، وصان كتابه عنه؛ لاقتناعه بأنّ روايته تشين مؤلّفه، وعمل يُحسب عليه. وكان إذا اضطرّ إلى إيراد نصّ هجائي اكتفى بذكر الأبيات العفيفة منه، واعتذر لنفسه. من ذلك أنّه لمّا أورد أبياتاً من لاميّة ابن عمّار في هجاء المعتمد بن عبّاد أتبعها بقوله: «وبعده أضربتُ عنه رغبة بكتابي عن الشّين، وبنفسي أن أكون أحد الهاجيين، فقد قالوا: **الرّاوية أحد الشّاتمين**» [31].

لقد كان لهيبة الحكّام وأصحاب النّفوذ وقمعهم، ولتشدّد الرّقابة النّقديّة، إذن، الأثر السيئ على الهجاء الأندلسي. كما أنّ إقصاء بعض المؤلّفين للنّصوص الهجائيّة من مؤلّفاتهم أدّى إلى ضياع الكثير منه. وإذا أضفنا إلى

ذلك عبث الأيدي بالمؤلّفات الأدبيّة والعلميّة أثناء قيام الفتن بين الأندلسيّين، وموقف الإسبانيّين العدائي من تراث المسلمين بعد رحيلهم عن الأندلس[32]، تبيّن لنا أنّ أيّة محاولة لرسم صورة دقيقة للهجاء الأندلسي تبقى ناقصة، إن لم نقل إنّها مطلب عسير المنال.

والسّؤال: كيف كان الهجاء الشّعراء الأندلسيّين لحكّامهم بالرّغم من ذلك كلّه؟.

ثانياً- الهجاء السياسي واتّجاهاته في الأندلس:

أقصد بالهجاء السياسي الشّعر الذي يصدر فيه صاحبه عن عصبيّة للوطن، أو الدّين، أو الجنس، أو الطّائفة، فيذمّ فيه حاكماً من الحكّام، أو أهل دين من الأديان، أو جنساً من الأجناس، أو طائفة من الطّوائف.

وإذا كان الشّاعر في الهجاء الشّخصي يعبّر عن نفسه، متأثّراً بعواطفه وأهوائه ومصالحه الخاصّة المحدودة، فإنّه في أكثر الهجاء السياسي «يعبّر عن جماعة هو أحدها، ولا يكاد يحسّ بشخصيته إلاّ في حدود هذه المجموعة التي يرتبط مصيره بها كلّ الارتباط (...) فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة، لا تكاد تحسّ لها أثرا»[33].

لقد كان الهجاء السياسي رائجاً في الأندلس[34]، وسلك اتّجاهات عديدة، أفرزتها طبيعة الأحوال السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة التي خضع لها أهل الأندلس. ولعلّ أبرز اتّجاهاته: هجاء الحكّام، وتهاجي العرب والمولّدين من العجم، وهجاء البربر، وهجاء النّصارى، وهجاء المرابطين، وهجاء اليهود.

ثالثاً- هجاء الحكّام:

لم يخل الشّعر الأندلسيّ من الهجاء السّياسي، منذ تأسيس دولة بني أميّة الثانية بالأندلس في سنة 138 هـ/755 م. وقد تعدّدت اتّجاهاته، وتنوّعت

أساليبه. وسأقتصر في هذا المقال على الهجاء الذي نال فيه أصحابه من الحكّام، بمختلف ألقابهم السّلطانيّة.

من بواكير الهجاء السّياسي في الأندلس هجاء الْقَلْفَاط للأمير عبد الله بن محمّد المرواني (275–300 هـ/888–912 م)، غير أنّ المصادر لم تحفظ لنا سوى بيت واحد منه، وهو قوله(35) [السّريع]:

مَا يَرْتَجِـــي العَاقِـــلُ في مُـــدَّةٍ الرِّجْـــلُ فِيهَا مَوْضِـــعُ الـــرَّاسِ

إنّ المقصود بـــ (الرِّجْل)، على الأرجح، هو الأمير عبد الله؛ لأنّ الهيكل الاجتماعي، أو الهرم السياسي كجسد الإنسان، فإذا كانت طبيعة خلق الإنسان تحتّم أن تكون الرِّجْلان في أسفل الجسد والرّأس في أعلاه، فإنّ الهيكل الاجتماعي يفرض أن يكون الأمير عبد الله في قاعدة الهرم الاجتماعي لا في قمّته؛ لأنّ لكلّ فرد من أفراد المجتمع صفات وخصائص تؤهّله لتبوّء منصب أو موقع معيّن، أو ليكون ضمن طبقة اجتماعيّة معيّنة، لا يتجاوزها إلى غيرها، وإلاّ اضطربت الأمور. وحينما اختلّ سُلّم المعايير، وأصبح عبد الله أميراً، عمّت الفوضى، وفسدت الأحوال، وحدث للرّعيّة ما يحدث للإنسان عندما ينتصب على رأسه بدلاً من رجليه.

ويحتمل أن يكون البيت تصويراً لاضطراب حال الأندلس على عهد الأمير عبد الله، بسبب عجزه، وقلّة جزمه، وانعكاس ذلك على حياة النّاس، حتّى غدت أسافل الأمور عواليها.

والحقّ أنّ الأمير عبد الله اعتلى كرسي الإمارة في وقت تأجّجت فيه نار الفتن، وثار فيه المتمرّدون في أقاليم كثيرة من الأندلس، وانقطع الخراج، وتطاول الأعداء (36).

ونشط هجاء الحكّام على عهد الخليفة هشام المؤيّد بالله بن الحكم المستنصِر (366–399 هـ/ 976– 1008 م)، وزمن الفتنة البربريّة (399–403 هـ/ 976– 1013 م). فقد كانت مبايعة هشام بالخلافة قبل بلوغه الحلم [37] باعثاً في حدّ ذاتها على الهجاء. من ذلك قول أحد الشّعراء [38] [السّريع]:

اقْتَـرَبَ الْوَعْـدُ، وَحَـانَ الْهَلاَكْ وَكُـلُّ مَـا تَحْـذَرُهُ قَـدْ أَتَـاكْ

خَلِيفَـةٌ يَلْعَـبُ فِـي مَكْتَـبٍ وَأُمُّهُ حُبْلَـى، وَقَـاضٍ (يُـ...)[39].

يعني الشّاعر بقوله: (خليفةٌ يلعبُ) هشاماً المؤيّد بالله؛ لصغر سِنّه، وبـ (أُمُّهُ حُبْلَى) والدته (صُبْح البُشْكَنْسِيَّة)، وكان النّاس يتّهمون بها الحاجب المنصور محمّد ابن أبي عامر، ويعني بـ (قاضٍ) القاضي محمّد بن إسحاق بن السّليم [40].

وإذا كان الشّاعر قد أنبأ في البيت الأوّل باقتراب قيام السّاعة، وحلول الهلاك، فإنّه علّل ذلك في البيت الثاني، وعدّ من علاماتها انشغال الخليفة (الطّفل) باللّعب، وعلاقة أمّه الأثيمة (المريبة) بحاجبه المنصور ابن أبي عامر، وفجور قاضيه.

ونفى المقري التّهمة عن السّيّدة (صُبْح) والقاضي (ابن السّليم) بقوله: « وذلك بهتان وزور، وأفظع منه رميهم القاضي بالفجور»[41]. وكيفما كان الأمر، فإنّ البيتين يعبّران عن النّقمة والاستياء الشّديدين إثر تربّع هشام بن الحكم، وهو طفل، على عرش الخلافة.

استغلّ الحاجب المنصور ابن أبي عامر (366–392 هـ/ 976–1002 م) صغر سنّ هشام المؤيّد، وعلاقته الطّيّبة بوالدته (صُبْح) فقتل بعض

الأكفاء بالخلافة من الأمويّين، وأبعد بعضهم، ومكر بكبار رجال الدّولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وأبي تمام غالب النّاصري، شيخ الموالي وفارس الأندلس، وجعفر ابن عليّ بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، وكان قد «أحلّه محلّ الأخ في الثّقة» [42]، وأبي الأحوص معن بن عبد العزيز التّجيبي، فارس العرب، وغيرهم ... وقرّب البربر واعتضد بهم، وحجر على هشام المؤيّد، واستبدّ بالسّلطة، ممتثلا في ذلك/ رسم المستغلبين على سلطان ولد العبّاس بالمشرق من أمراء الدّيلم في عصره، فنال بغيته ... من غير اقتدار عليه بجند خاصّ، ولا صيال بعشيرة، ولا مكاثرة بمال ولا عدّة، بل رمى الدّولة من كنانتها، وعدا عليها بأعضادها، وانتضلها بمشاقصها[43]، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها، حتّى حوّلها إليه، وسبكها في قالبه، وسلخ رجالها برجاله، وعفّى رسومها بما أوضح من رسومه، وأسقط رجال الحكم من سائر الطّبقات: الكتّاب، والعمّال، والقضاة، والحكّام، وأصحاب السّيوف والأقلام ومزّقهم، وأقام بإزائهم من تخريجه واصطناعه رجالاً سدّوا مكانهم، أعانوه على أمره [44].

لم يبق لهشام المؤيّد من الخلافة سوى الدّعاء له على منابر المساجد، وكتابة اسمه في السّكّة والطُّرُز[45]. فقال أحد الشّعراء على لسان المؤيّد [46] [الوافر]:

أَ لَيْــسَ مِنَ الْعَجَائِــبِ أَنَّ مِثْلِــي يَــرَى مَــا قَــلَّ مُمْتَنَعــاً عَلَيْــهِ

وَتُمْلَــكُ بِاسْمِــهِ الدُّنْيَــا جَمِيعــاً وَمَا مِنْ ذَاكَ شَــيْءٌ فِي يَدَيْــهِ ؟!

لقد وفّق الشّاعر في التّعبير عن خلافة هشام المؤيّد الشّكليّة (الصّوريّة) وذلك بالمقابلة بين صدر البيت الثاني وعجزه. (تملك الدّنيا كلّها (الأندلس) باسمه ≠ وما في يديه شيء ممّا يملك. (المنافع والقرارات).

والحقّ أنّ الأمر لم يبق عند حدّ مساعدة وليّ عهدٍ صغير، غير قادر على تحمّل أعباء الخلافة، وإنّما تحوّل إلى اغتصاب حكم وسيادة. فقد عفّى الحاجب المنصور محمّد بن أبي عامر على آثار الدّولة الأمويّة، وأسّس الدّولة العامريّة. وأدّت سياسته الاستبداديّة إلى تكوّن معارضة قويّة كثيرة الأطراف، تتألّف من الموتورين من بني أميّة ومواليهم، والصّقالبة، والعرب عامّة. وكانوا يسعون في الخفاء للقضاء على ابن أبي عامر، غير أنّ حزمه ويقظته حالا بينهم وبين ما كانوا يأملون.

عرف الأندلسيّون، إذن، التّحزّب، ولكنّه تحزّب من نوع خاصّ، نابع من أوضاعهم الاجتماعيّة والسياسية [47]. وقد عكس ذلك هجاؤُهم. من ذلك قول أحد الشّعراء محرّضاً بني أميّة على الثّورة على الحاجب المنصور ابن أبي عامر [48] [الكامل]:

فِي مَا أَرَى عَجَبٌ لِمَنْ يَتَعَجَّبُ ... جَلَّتْ مُصِيبَتُنَا، وَضَاقَ الْمَذْهَبُ
إِنِّي لأُكْذِبُ مُقْلَتِي فِي مَا أَرَى ... حَتَّى أَقُولَ غَلِطْتُ فِي مَا أَحْسِبُ
أَ يَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمَيَّةَ وَاحِدٌ ... وَيَسُوسُ ضَخْمَ الْمُلْكِ هَذَا الأَحْدَبُ!
تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالِي هَوْدَجٍ ... أَعْوَادُهُ فِيهِنَّ قِرْدٌ أَشْهَبُ
أَ بَنِي أُمَيَّةَ أَيْنَ أَقْمَارُ الدُّجَى ... مِنْكُمْ، وَمَا لِوُجُوهِهَا تَتَغَيَّبُ؟.

ومنها حسب رواية أخرى [49]:

أَ بَنِي أُمَيَّةَ أَيْنَ أَقْمَارُ الدُّجَى ... مِنْكُمْ، وَأَيْنَ نُجُومُهَا وَالْكَوْكَبُ؟
غَابَتْ أُسُودٌ مِنْكُمُ عَنْ غَابِهَا ... فَلِذَاكَ حَازَ الْمُلْكَ هَذَا الثَّعْلَبُ.

ويلاحظ أنّ هذه الأشعار أغفال، أخفى أصحابها أسماءهم خوفاً من انتقام الحاجب ابن أبي عامر منهم.

وفي سنة 399 هـ/1008 م ثار محمّد بن هشام بن عبد الجبّار على عبد الرحمن (شنجول)، ثاني أبناء الحاجب ابن أبي عامر وقتله، وخلع

الخليفة الصّوري هشامًا المؤيّد، وخلّص الخلافة الأمويّة من ربقة العامريّين واستبدادهم الذي دام أكثر من ثلاثين عامًا.

وسُرّ أهل قرطبة بانقلاب محمّد المهدي سروراً عظيمًا، «وأحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراسًا، وداموا على ذلك أيّامًا تباعًا، ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامير والملاهي، راجين تمام أملهم، وانتظام أمرهم» [50]، غير أنّ ابتهاجهم لم يدم، وسرعان ما أصيبوا بخيبة أمل؛ لأنّ المهدي أساء السيرة، وأقبل على اللّذات، «وجاهر بالمعاصي، وظهر من فسقه، واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلاّ من أهل الدّعارة المتهتّكين فيها... ولم يزل طول مدّته مشتهرًا بالفسق، مظهرًا للخلاعة، لا يفيق من سكر، ولا يرع من منكر بالنّساء، والصّقالبة، والملاهي، حتّى قال فيه أحد الشّعراء [الوافر]:

أَمِيرُ النَّاسِ سُخْنَةُ كُلِّ عَيْنٍ يَبِيتُ اللَّيْلَ بَيْنَ مُخَنَّثَيْنِ
يُجَشِّمُ ذَا، وَيَلْثِمُ خَدَّ هَذَا وَيَسْكَرُ كُلَّ يَوْمٍ سَكْرَتَيْنِ
لَقَدْ وَلُّوا خِلاَفَتَهُمْ سَفِيهًا ضَعِيفَ الْعَقْلِ، شَيْنًا غَيْرَ زَيْنِ»[51]

لقد كان شعراء الأندلس،كما نلاحظ، يواكبون الأحداث، ويندّدون بالعبث والاستهتار، وينعون على الحكّام قبح سيرهم ويشهّرون بهم. لقد غدا محمّد المهدي سبباً في لوعة النّاس وحزنهم، نهاره سكر، وليله فجور، «ولم تزل مناكيره تزيد حتّى هانت أجرام آل عامر عند النّاس، وأقرّوا بظلمهم لهم»[52]. وممّا قيل فيه أيضاً [53] [مخلّع البسيط]:

أَشْأَمُ خَلْقٍ عَلَى الْعِبَادِ وَالنَّاسِ مِنْ حَاضِرٍ وَبَادِ
أَبُو الْوَلِيدِ الذِي اقْشَعَرَّتْ لِنَحْسِهِ شَعْرَةُ الْبِلاَدِ
كَانَ عَلَى قَوْمِهِ جَمِيعاً مَزَارَ عَادٍ لِقَوْمِ عَادِ.

وقال فيه أحد الشّعراء ساخرًا من لقبه (المهدي بالله) [54] [مخلّع البسيط]:

قَــدْ قَـــامَ مَهْدِيُّنَـــا ولَكِـــنْ بِمِلَّـــةِ الْفِسْـــقِ وَالْمُجُـــونِ
وَشَارَكَ النَّـــاسَ فِـــي حَرِيْـــمٍ لَـــوْلاَهُ مَـــازَالَ بِالْمَصُـــونِ
مَنْ كَانَ، مِنْ قَبْـــلِ ذَا، أَجَمّـــاً فَالْيَوْمَ قَدْ صَـــارَ ذَا قُـــرُونِ[55].

لقد كانت تلك الأهاجي أصواتاً تتدّد بمناكره، وبما جرّه على البلاد من فتن ومآسي. وكان مثل هذا الهجاء كثيرا، ممّا دفع ابن عذاري المراكشي إلى القول بعد أن أثبت مقطوعتين: « وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به»[56]. وهذا دليل على رواج الهجاء السياسي في الأندلس، وضياع الكثير منه.

وفي سنة 399 هـ/2008 م، اشتعلت فتنة شنعاء بالأندلس بين عامّة قرطبة بقيادة محمّد المهدي، والبربر بزعامة هشام بن سليمان، ثمّ بقيادة سليمان بن الحكم (المستعين بالله) إمامهم من بعده، وهي «الفتنة العظيمة الطّويلة التي يسمّيها أهل الأندلس بالفتنة البربريّة، ولو سمّوها بفتنة ابن عبد الجبّار لكان الأحقّ والأولى»[57]. والتي أسفرت عن قتل هشام بن سليمان، ومحمّد المهدي، وسليمان المستعين، والآلاف من الأندلسيّين من كلّ الطّبقات الاجتماعيّة، وظهور بني حمّود على مسرح الحياة السياسية بالأندلس.

وقال أحد الشّعـــراء في هجاء سليمـــان المستعيـــن، إمام البربر، وأحد المتناحريـــن على السّلطة[58] [السّريع]:

لاَ رَحِـــمَ اللهُ سُلَيْمَـــانَكُـــمْ فَإِنَّـــهُ ضِـــدُّ سُلَيْمَـــانِ
ذَاكَ بِهِ غُلَّـــتْ شَيَـــاطِينُهَـــا وَحَـــلَّ هَذَا كُـــلَّ شَيْطَـــانِ
فَبِاسْمِهِ سَاحَـــتْ عَلَى أَرْضِنَا لِهَلْكِ سُكَّـــانٍ وَأَوْطَـــانِ.

ولعلّ أجود ما جادت به قرائح الشّعراء في تلك الحرب الأهليّة المبيرة قول بعضهم في هجاء مسلمي الأندلس عامّة [59] [البسيط]:

أَضَعْتُـــمُ الْحَزْمَ فِي تَدْبِيـــرِ أَمْرِكُـــمُ   سَتَعْلَمُـــونَ مَعاً عُقْبَى الْبَـــوَارِ غَـــدَا
فَلَوْ رَأَيْتُـــمْ، بِعَيْـــنِ الْفِكْـــرِ، حَالَكُـــمُ   بَكَيْتُـــمُ بِـــــدَمٍ أَنْ دُمْتُـــــمُ بَـــــدَدَا
لَكِنَّ سُبْلَ الْعَمَـــى أَعْمَتْ بَصَائِرَكُـــمْ   فَأَلْبَسَتْكُـــمْ ثِيَـــاباً لِلْبِلَـــــى جُـــــدُدَا
يَا أُمَّـــةً هَتَكَـــتْ مَسْتُـــورَ سَوْءَتِهَـــا   مَا كُلُّ مَنْ ذَلَّ أَعْطَى بِالصَّغَـــارِ يَدَا
فِي سُـــورَةِ الْحَشْرِ آيَـــاتٌ مُفَصَّلَـــةٌ   فِي شَأْنِكُمْ أُنْزِلَـــتْ لَمْ تَعْدُكُـــمْ أَحَـــدَا
نَعَمْ وَفِي الْكَهْفِ فِي الْعِشْرِينَ خَاتِمَةً   تَقْضِي عَلَيْكُـــمْ بِأَنْ لاَ تُفْلِحُـــوا أَبَدَا[60]
فَاسْتَشْعِرُوا سُـــوءَ عُقْبَاكُمْ فَقَدْ شَمِلَتْ   جَمِيعَكُـــمْ مِحْنَـــةٌ لاَ تَنْقَضِـــي أَبَـــدَا.

تمتزج، في هذه الأبيات، مشاعر الحزن والألم بمشاعر الاحتقار والنّقمة. ويشكّل الصّدق العاطفي أحد عناصر تأثيرها البارزة. وهي أبيات لا تدعو إلى الضّحك بقدر ما تدعو إلى التّأمّل والحسرة والتّفجّع.

ويبدو أنّ وقع استنجاد الفئتين المتناحرتين بالنّصارى كان شديداً على نفس الشّاعر؛ ولذلك صرخ في وجوههم باحتقار شديد:

يَا أُمَّـــةً هَتَكَـــتْ مَسْتُـــورَ سَوْءَتِهَـــا   مَا كُلُّ مَنْ ذَلَّ أَعْطَى بِالصَّغَـــارِ يَـــدَا

وذلك لأنّ مساعدات النّصارى العسكريّة لهذه الفئة أو تلك كانت مقابل التّنازل لهم عن الحصون والقلاع، أو تقديم الأموال الكثيرة.

وحاول الخليفة عبد الرّحمن المرتضى، وعبد الرّحمن المستظهر، ومحمّد المستكفي، وهشام المعتدّ تدارك الأمر، وإنعاش الدّولة الأمويّة المحتضرة، وإنقاذها من السّقوط والانهيار، ولكن جهودهم جميعًا باءت بالفشل؛ لضعف أغلبهم وعجزهم من ناحية، ولاستفحال الدّاء، وبلوغه درجة

لا ينفع معها أيّ علاج من ناحية أخرى. كما قال ابن حُمام الأزديّ [السّريع]:

كالثّوبِ إنْ أنهـــج فيه البِلى أعيا على ذي الحيلةِ الصّانعِ
كُنّا نُدَارِيهـــا وقَدْ مُزّقـــتْ **واتّسعَ الْخَـــرْقُ على الرّاقِعِ.**

وسقطت الدّولة الأمويّة، وبدأ في الأندلس عهد جديد من تاريخها وهو عصر الطّوائف، الذي يشغل القرن الخامس الهجري تقريبا (الحادي العشر ميلادي).

وقد أجاد أبو الربيع في التّعبير عن خريف الدّولة الأمويّة، وضياع هيبة آخر خلفائها وتأثيره، وذلك في البيتين اللّذين سخرا فيهما من حَكَم بن سعيد، وزير الخليفة هشام المعتدّ، وهما قوله [61] [مخلّع البسيط]:

هَبْـــكَ كَمَا تَدَّعِـــي وَزِيـــراً وَزِيـــرُ مَنْ، أَنْتَ، يَا وَزِيـــرُ؟
وَاللهِ مَـــا لِلأَمِيـــــرِ مَعْـــنىً فَكَيْـــفَ مَـــنْ وَزَّرَ الأَمِيـــرُ!.

فما قيمة الوزير في مدّة لم يعد فيها للأمير معنى أو وزنا، وأصبح أميرًا صوريّاً، لا هيبة له ولا نفوذ.

ولم ينج ملوك الطّوائف ورعاياهم أيضاً من ألسنة الشّعراء. وقد أدار الشّعراء معاني هجائهم فيهم على محاور كثيرة، كإسناد بعض الوظائف الحسّاسة في الدّولة إلى اليهود والنّصارى، وكإنفاق الأموال الضّخمة في بناء القصور الفاخرة، وعدم استثمارها في إعداد القوّة لمواجهة الأعداء، والقعود عن الذّود عن الإسلام والمسلمين، وإرهاق الرّعيّة بالضّرائب، والاستكانة إلى الحياة النّاعمة، وعدم الاستعداد إلى الحرب والقتال، والجري وراء الألقاب السّلطانيّة الرّنّانة.

قال ابن الجدّ في نفوذ اليهود الواسع في مملكة بني زيري بغرناطة، وحسن حالهم فيها[62] [الوافر]:

تَحَكَّمَتِ الْيَهُـودُ عَلَى الْفُـرُوجِ وَتَاهَـتْ بِالْبِغَـالِ وَبِالسُّـرُوجِ
وَقَامَـتْ دَوْلَـةُ الأَنْـذَالِ فِينَـا وَصَـارَ الْحُكْمُ فِينَا لِلْعُلُـوجِ[63]
فَقُـلْ لِلأَعْـوَرِ الدَّجَّـالِ هَـذَا/زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ[64]

وقال أبو حفص عمر العروضيّ الزّكرمي في أهل دانية عندما رأى حاكمهم يكلّف اليهود بجمع الضّرائب (الجزية) من المسلمين، حتّى الشّعراء منهم [65] [الكامل]:

يَا أَهْـلَ دَانِيَـةٍ لَقَـدْ خَالَفْتُـمُ حُكْمَ الشَّرِيعَـةِ وَالْمُـرُوَّةِ فِينَا
مَا لِي أَرَاكُمْ تَأْمُـرُونَ بِضِدِّ مَا أَمَرَتْ، تُرَى نَسَخَ الإِلَـهُ الدِّينَا؟
كُنَّا نُطَالِـبُ لِلْيَهُـودِ بِجِزْيَـةٍ وَأَرَى الْيَهُـودَ بِجِزْيَـةٍ طَلَبُونَا
مَا إِنْ سَمِعْنَا مَالِكـاً أَفْتَـى بِذَا لاَ، لاَ، وَلاَ مِـنْ بَعْدِهِ سُحْنُـونَا
هَذَا وَلَـوْ أَنَّ الأَئِمَّـةَ كُلَّهُـمْ حَاشَاهُـمُ بِالْمَكْـسِ قَدْ أَمَرُونَا
مَا وَاجِبٌ مِثْلِي يُمَكَّسُ عِدْلُـهُ لَوْ كَانَ يَعْدِلُ وَزْنُهُ قَـاعُونَا[66]
وَلَقَدْ رَجَوْنَا أَنْ نَنَالَ بِمَدْحِكُمْ رِفْداً يَكُونُ عَلَى الزَّمَـانِ مُعِينَا
فَالآنَ نَقْنَـعُ بِالسَّلاَمَـةِ مِنْكُمُ لاَ تَأْخُـذُوا مِنَّـا وَلاَ تُعْطُـونَا.

وعندما أسند باديس بن حبّوس بن ماكسن بن زيري الصّنهاجي ملك غرناطة (428–465 هـ/1037–1073 م)، الوزارة والكتابة إلى يوسف بن إسماعيل (صمويل هاليفي) بن النّغرالة اليهودي، طمح يوسف إلى تأسيس دويلة يهوديّة تجمع شمل اليهود يكون هو أوّل ملوكها. ولم لا، وكلّ شيء كان جائزاً في ذلك العصر المتقلّب، المتميز بالضّعف والتّناحر، والدّسائس،

والمؤامرات، فما عليه سوى استغلال ذكائه، وحبك خطّته؛ لتحقيق حلمه الكبير.

قام يوسف ببعض الإجراءات للتسلّط على باديس، والاستبداد بالحكم دونه، فقرّب اليهود، وأسند إليهم الأعمال، وأحسن إلى نساء القصر وفتيانه، وجعلهم عيوناً له على باديس يرصدون حركاته وسكناته كلّها، ويوافونه بها كاملة، « فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس، من كلّ ما يجري في منزله من شراب ولهو، وجدّ وهزل إلاّ ويعلمه، ويُعلم به اليهود، فلا يكاد باديس يتنفّس إلاّ ويعلم اليهوديّ ذلك» [67].

ونجح يوسف، في سنة 456 هـ/1064 م، في التّخلص من بلكين ابن الملك باديس ووليّ عهده، وذلك بسمّه، وإيهام والده بأنّ جواري بلكين وفتيانه هم الذين دبّروا الجريمة ونفّذوها.

حزن باديس حزناً شديداً على فقد ابنه، فأقبل على الخمر يعبّ من دنانها ليتسلّى وينسى. واغتنم الوزير اليهودي محنته، فشجّعه على الاستمرار في ذهوله، وعمل على حجره حتّى ارتاب النّاسُ في أمره.

ولم يكن نجاح يوسف في تلك المراحل كافياً؛ لأنّ الانقلاب يحتاج إلى قوّة، إلى جيش ينفذّ المؤامرة. ووجد يوسف ضالّته في المعتصم بن صُمَادح، صاحب المرية (433–484 هـ/1052–1091 م)، فاتّفق معه أن يدخله غرناطة، ويأخذ هو المرية [68].

وفي تلك الفترة المضطربة كانت قصيدة الفقيه الزّاهد أبي إسحاق الإلبيري (ت نحو 460 هـ/1068 م) الشّهيرة المناهضة لليهود [69] تتناقل على الألسن وتشحذ العزائم، وتشحن النّفوس. والحقّ –كما قال المستشرق الإسباني إميليو غرسيه غومث (Emilio García GÓMEZ) – «أنّ القصيدة تستحقّ ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلاّ القليل النّادر أنّ أبياتاً من

الشّعر لعبت دوراً سياسيّاً مباشراً في التّاريخ السّياسي لأمّة من الأمم، فكهربت العزائم ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السّيوف للقتل، كالدّور الذي لعبته هذه القصيدة» [70].

تتألّف القصيدة من سبعة وأربعين بيتاً، في مدح الأمير باديس ولَوْمِهِ، وذمّ الوزير يوسف وقومه اليهود. يقول أبو إسحاق الإلبيري [71] [المتقارب]:

ألا قُــلْ لِصنهاجــةٍ أجمعيــنْ بُــدُورِ النَّدِيِّ، وأُسْدِ العَريــنْ
لقــد **زَلَّ سَيِّدُكُـــمْ زَلَّـــةً** تَقِــرُّ بِها أَعْيُــنُ الشَّــامِتِيــنْ
تخيّـــرَ كَــاتِبَــهُ **كَــافِــراً** ولو شــاءَ كان من المسلمِيــنْ
فَعَــزَّ **اليهــودُ** بِــهِ وانْتَخــوا وتاهوا، **وكانوا من الأرْذَلِيــنْ**
(..... .....)
وما كــان ذلك مــن سَعْيِهِــمْ ولكــنَّ مِنّــا يَقُــومُ الْمُعِيــنْ
فهلاّ **اقتــدى** فيهــمُ بالأولــى من **القــادة الخِيرَة الْمُتّقيــن**
(..... .....)
أ باديــسُ، أنتَ امرؤٌ حــاذقٌ تُصِيــبُ بِظَنِّكَ نَفْــسَ اليَقِيــنْ
فكيف اختفتْ عنكَ أعيانُهُــمْ/ وفي الأرضِ تُضْرَبُ منها القُرُونْ
وكيــف يتــمّ لك الْمُــرْتقــى إذا كنتَ تبنــي **وهم يَهْدِمُــونْ**
وكيــف **استنمتَ** إلى **فاســقٍ** وقارنتــه وهو **بِيــسَ القَرِيــنْ**
(..... .....)
وكيــف **انفــردتَ بتقريبهــم** وهم في البــلاد من الْمُبعديــن
على أنّــك الملك الْمُرْتضــى سليــلُ الْملــوكِ من الماجديــن
وأنّ لك السّبــقُ بين الــوَرَى كما أنتَ من جِلَّــةِ السَّــابِقِيــنْ

(.............................. ....).

ذكرتُ، آنفاً، أنّ يوسف وجد لدى المعتصم بن صمادح موافقة وقبولاً لتنفيذ مؤامرته الدّنيئة. فتحرّك جيش ابن صمادح حتى بلغ مشارف غرناطة، ثمّ توقّف ينتظر قدوم اللّيل ليتسلّل تحت جنحه إلى المدينة، لمباغتة الصّنهاجيّين وهم على غير استعداد، ولكن رجالاً منهم اكتشفوا الأمر قبل زوال النّهار، « فأعلنوا بالصّياح، وثاروا إلى السّلاح، وأتى الصّريخ بقية الجند وعامّة أهل البلد، ونادى مناديهم: غدر اليهوديّ وخان، وطاح المظفَّر – يعنون باديس – وحان»[72]، واندفع الجميع كالسّيل الجارف إلى دار يوسف فأخرجوه، وقتلوه. ورجعوا، بعد ذلك، إلى اليهود، فقتلوا منهم الآلاف، ونهبوا دُورهم، واجتاحت أنغامُ نونيّة أبي إسحاق الإلبيريّ « حيّة، متوهّجة أعماق المدينة مع زفير النّيران، وحشرجة الموتى» [73].

وقال السُّميسِر، وكان أكثر شعراء عصره جرأة وجسارة [74]، في باديس بن حبّوس، ملك غرناطة؛ لاستيزاره نصرانيّا بعد هلاك وزيره اليهودي [75] [مجزوء الخفيف]:

كُـــلَّ يَـــوْمٍ إِلَـــــــى وَرَا   بُـــدِّلَ البَـــوْلُ بِـــ [...][76]
فَزَمَـــانــــــاً تَهَــــــوّدا   وزَمَانـــاً تَنَصّــــــــــــرَا
وَسَيَصْبُـــو إِلَـــى الْمَجُـــو   سِ، إِنِ الشَّيْـــــخُ عُمِّـــرَا.

كتب نسخا كثيرة من الأبيات، ورماها في شوارع غرناطة وطرقاتها؛ ليضمن لها أكبر قدر من الذّيوع والانتشار، ثمّ أسرع بالفرار إلى المرية معتصما بالملك المعتصم بن صمادح (443–484 هـ/1051– 1091 م). ولمّا بلغت الأبيات باديس أرسل وراءه أصحاب الخيل، ولكنّهم لم يقفوا له على أثر[77].

ولمّا رأى السّميسرُ عبدَ الله بنَ بلقين، ملك غرناطة (465– 483 هـ/1073–1090 م) مشغوفاً ببناء قلعته قال فيه [78] [مخلّع البسيط]:

صَاحِبُ غَرْنَاطَـــةٍ سَفِيـــهُ وَأَعْلَـــمُ النَّـــاسِ بِالأُمُـــورِ
صَانَعَ أَذْفُونْشَ وَالنَّصَارَى فَانْظُرْ إِلَى رَأْيِـــهِ الدَّبِيـــرِ
وَشَـــادَ بُنْيَـــانَـــهُ خِلاَفـــاً لِطَـــاعَـــةِ اللهِ وَالأَمِيـــــرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِـــهِ سَفَاهـــاً كَأَنَّـــــهُ دُودَةُ الْحَـــرِيـــــرِ
دَعُوهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَـــدْرِي إِذَا أَتَـــتْ دُودَةُ الْقَـــدِيـــــرِ.

وقال الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن معلى[79] في خروج سكّان بلنسية وأميرهم عبد العزيز بن أبي عامر في سنة 456 هـ/1064 م لقتال الأعداء في ثياب زينتهم، وانهزامهم في موضع يعرف ببطرنة [80] (Paterna) [الكامل]:

لَبِسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَغَى وَلَبِسْتُمُ حُلَـــلَ الْحَرِيـــرِ عَلَيْكُـــمُ أَلْوَانَـــا
مَا كَـــانَ أَقْبَحهُمْ وَأَحْسَنكُمْ بِهَـــا لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطَرْنَـــةٍ مَا كَانَـــا!.

إنّه الخرق والجهل المطبق بالحرب، وضعف الرّوح العسكريّة بسبب الرّكون إلى الحياة اللّينة النّاعمة. وإلاّ كيف يخرج القوم لملاقاة العدوّ في ملابس الأعياد والأفراح (حلل الحرير)؟!.

وحين رأى السّميسر «اختلال القيم، وزهوة الباطل، وغلبة الصّغار، وعجزه عن التّغيير ... سخر ممّا يعظّم النّاس، وهجا من يمدحون، واحتقر ما يكبرون، وجاء هجوه لهم مفحشًا، ونقده قاسيًا»[81]. من ذلك قوله صارخاً في وجه الملوك؛ لقعودهم عن الجهاد، والذّود عن حمى المسلمين [82] [مجزوء الكامل]:

نَادِ الْمُلُـــوكَ وَقُـــلْ لَهُـــمْ: مَـــاذَا الـــذِي أَحْدَثْتُـــمُ

أَسْلَمْتُـــمُ الإِسْــــلاَمَ فِـــي أَسْـــرِ الْعِــدَى وَقَعَدْتُـــــمُ
وَجَـــبَ الْقِيَـــامُ عَلَيْكُـــمُ إِذْ بِالنَّصَـــــارَى قُمْتُـــــمُ
لاَ تُنْكِـــرُوا شَـــقَّ الْعَصَـــا فَعَصَـــا النَّـــبِيِّ شَقَقْتُـــــمُ.

وللسميسر أهاج كثيرة يمزج فيها الذّمّ بالشّماتة والتّشفّي عند نزول النّكبات والمحن، من ذلك قوله [83] [الطّويل]:

وَلِيتُـــمْ فَمَا أَحْسَنْتُـــمُ مُذْ وَلِيتُـــمُ وَلاَ صُنْتُـــمُ عَمَّنْ يَصُونُكُـــمُ عِرْضَا
وَكُنْتُمْ سَمَـــاءً، لاَ يُنَـــالُ مَنَـــالُهَا فَصِرْتُمْ لَدَى مَنْ لاَ يُسَائِلُكُـــمْ أَرْضَا
سَتَسْتَرْجِعُ الأَيَّـــامُ مَا أَقْرَضَتْكُـــمُ أَلاَ إِنَّهَا تَسْتَرْجِـــعُ الدَّيْـــنَ وَالْقَرْضَا.

ومن أشهر ما هجي به ملوك الطّوائف قول الحصري الضّرير يسخر من الألقاب السّلطانيّة الكبيرة التي اختاروها لأنفسهم من غير استحقاق[84] [البسيط]:

مِمَّا يُبَغِّضُـــنِي فِـــي أَرْضِ أَنْدَلُـــسٍ سَمَـــاعُ مُعْتَصِـــمٍ فِيهَـــا وَمُعْتَضِـــدِ
أَسْمَاءُ مَمْلَكَـــةٍ فِي غَيْـــرِ مَوْضِعِهَا كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَـــةَ الأَسَدِ.

وبينما كان ملوك الطّوائف متفرّقين ومتناحرين، يلهثون وراء الألقاب الضّخمة كان أعداؤهم يعملون على جمع كلمتهم، ورصّ صفوفهم؛ لاكتساح أراضي المسلمين، والأخذ بثأرهم منهم، والقضاء على وجودهم.

وفي سنة 478 هـ/1085 م قضى ألفونس السّادس (Alphonse VI) على مملكة بني ذي النّون ودخل مدينة طليطلة عاصمتهم منتصراً، فكان ذلك حدثاً جللاً ارتجّت له أرجاء الأندلس. فقال الفقيه الزّاهد عبد الله ابن فرج اليحصبي، المشهور بابن العسّال (ت 487 هـ/1094 م) في تلك المناسبة الأليمة [85] [البسيط]:

يَـــا أَهْـــلَ أَنْدَلُـــسٍ حُثُّـــــوا مَطِيَّكُـــمُ فَمَا الْمُقَـــامُ بِهَـــا إِلاَّ مِـــنَ الْغَلَـــطِ
الثَّـــوْبُ يَنْسُـــلُ مِـــنْ أَطْرَافِـــهِ وَأَرَى ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُـــولاً مِنَ الْوَسَطِ

وَنَحْــنُ بَيْــنَ عَــدُوٍّ لاَ يُفَــارِقُنَــا/ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ؟.[86]

لقد تنبّأ ابن العسّال بزوال دولة الإسلام بالأندلس قبل الأوان، ودعا المسلمين من أهلها إلى الإسراع في شدّ الرّحال لمغادرتها والخروج منها. وعلى الرّغم من روح الانهزاميّة التي تسري في الأبيات، فإنّها لا تخلو من التّعريض بالأندلسيّين وملوكهم؛ الذين تفرّقت كلمتهم، وركنوا إلى الأمن والسّلامة.

ولمّا تمادى النّصارى في التّضييق على المسلمين، وبالغوا في الاستهانة بملوكهم وإعناتهم، ولم تُجْد معهم المصانعة ودفع الإتاوات نفعًا، استنجدوا بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وهبّ ابن تاشفين بجيشه لنجدتهم. وانتصر الجيشان المغربي والأندلسيّ على الجيش النّصراني انتصاراً عزيزاً في موقعة الزلاّقة (Sagrajas) سنة 479 هـ/1086 م. وأنشأ أبو الحسن بن الجدّ، في تلك المناسبة، قصيدة مدح فيها يوسف بن تاشفين، وخصّص القسم الأكبر منها لهجاء ملوك الطّوائف وذمّهم. يقول[87] [البسيط]:

فِي كُــلِّ يَــوْمٍ غَرِيــبٌ فِيهِ مُعْتَبَــرُ نَلْقَــاهُ، أَوْ يَتَلَقَّــانَــا بِــهِ خَبَــرُ
أَرَى الْمُلُــوكَ أَصَابَتْهُــمْ بِأَنْدَلُــسٍ دَوَائِــرُ السَّــوْءِ لاَ تُبْقِــي وَلاَ تَــذَرُ
قَدْ كُنْــتُ أَنْظُرُهَا وَالشَّمْسُ طَالِعَــةٌ لَوْ صَــحَّ لِلْقَــوْمِ فِي أَمْثَالِهَا النَّظَــرُ
نَامُــوا وَأَسْرَى لَهُمْ تَحْتَ الدُّجَى قَدَرٌ هَــوَى بِأَنْجُمِهِمْ خَسْفاً وَمَا شَعَــرُوا
وَكَيْفَ يَشْعُــرُ مَنْ فِي كَفِّــهِ قَــدَحٌ تَحْــدُو بِهِ مُذْهِــلاَتُ النَّايِ وَالْوَتَــرُ
صَمَّــتْ مَسَامِعُــهُ عَنْ غَيْرِ نَغْمَتِــهِ فَمَــا تَمُــرُّ بِــهِ الآيَــاتُ وَالسُّــوَرُ
تَلْقَــاهُ كَالْعِجْــلِ مَعْبُــوداً بِمَجْلِسِــهِ لَــهُ خُــوَارٌ وَلَكِــنْ حَشْــوُهُ خَــوَرُ
وَحَوْلَــهُ كُــلُّ مُغْتَــرٍّ وَمَا عَلِمُــوا أَنَّ الَّذِي زَخْرَفَــتْ دُنْيَاهُــمْ غَــرَرُ
فَقُلْ لِمَنْ نَامَ: أَصْبَحْتَ، انْتَبِهْ، فَلَقَــدْ/مَضَى لَكَ اللَّيْلُ بَحْتاً، وَانْقَضَى السَّحَرُ[88]

وَانْظُرْ إِلَى الصُّبْحِ سَيْفاً فِي يَدَيْ مَلِكٍ فِي اللهِ مِــنْ جُنْدِهِ التَّأْيِيــدُ وَالظَّفَــرُ
يَرْعَى الرَّعَــايَا بِطَرْفٍ سَاهِــرٍ يَقِظٍ كَمَا رَعَاهَــا بِطَرْفٍ سَاهِــرٍ عُمَــرُ
رِدُوا مَــوَارِدَ قَــدْ أَوْرَدْتُــمُ حَنَقــاً بِهَا الأَنَــامَ وَلَكِــنْ مَا لَكُــمْ صَــدَرُ
كَأَنَّنِــي بِكُــمُ قَــدْ صِرْتُــمُ سَمَــرًا وَمَا لَكُمْ فِي الْوَرَى عَيْــنٌ وَلاَ أَثَــرُ
أَمَاتَكُــمْ قَبْــلَ مَوْتٍ سُــوءُ فِعْلِكُــمُ وَكَيْفَ بِالذِّكْرِ إِذ لَمْ تَحْسُنِ السِّيَــرُ؟.

تستحقّ هذه القصيدة الوقوف عندها وتأمّلها؛ لأنّه اجتمع لها من الخصائص ما لم يجتمع لغيرها من نوعها، فجاءت فريدة متميّزة.

تتألّف القصيدة من أربعة عشر بيتًا، وهي بذلك تختلف عمّا ألفناه من مقطّعات (باستثناء نونيّة أبي إسحاق الإلبيري). ثمّ على الرّغم من أنّ غرضها المدح، فإنّه لا يشغل منها سوى بيتين اثنين؛ وهذا دليل على أنّ الشّعور بالغضب كان أكثر سيطرة وطغيانا على نفس الشّاعر من الشّعور بالرّضى؛ ولذلك استهلّها بالذّمّ وبه ختمها. ويبدو أنّ النّصر العزيز الذي حقّقه الجيش المغربي- الأندلسيّ على أرض الزّلاّقة كان أعظم وأكبر من أيّ مدح وإشادة.

وتقوم جودتها كذلك على ثلاث ركائز أساسية: الصّدق، والعفّة، والمفاضلة. وهي معايير الهجاء الجيّد عند النّقّاد القدماء. فأمّا الصّدق فنلمسه في تلك اللّقطات المنتخبة من سير ملوك الطّوائف، المتمثّلة في القعود عن الجهاد والدّفاع عن الإسلام، وإهمال شئون الرّعيّة، والاشتغال عن الأمور المصيريّة بمجالس اللّهو وما يجري فيها من عبّ للخمر واستماع للغناء.

وأمّا العفّة فيجسّدها نَكْف الشّاعر عن الإفحاش اللّفظي والمعنوي، فقد تجنّب الحديث عن اللّهو بالنّساء، على الرّغم من ذكره لشغفهم بمجالس الشّراب والطّرب.

وأمّا المفاضلة فيبدو في المقارنة بين سياسة يوسف بن تاشفين وملوك الطّوائف؛ فهو «يرعى الرّعايا بطرف ساهر يقظ» حتى غدا في حسن رعيه وعدله صنواً للخليفة عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، وهم عاجزون، مستبدّون، عسفوا الرّعيّة. فذمّهم الشّاعر ونال منهم دون إقذاع.

وممّا يؤثر من هجاء القرن السّابع الهجري (13م) قول الأديب أبي عبد الله الفازازي في مقطوعة وجدت في جيبه يوم وفاته، مصوّراً محن الأندلسيّين الشّديدة، وسوء حالهم [89] [الكامل]:

الرُّومُ تَضْرِبُ فِي الْبِلاَدِ وَتَغْنَمُ وَالْجَوْرُ يَأْخُذُ مَا بَقِي وَالْمَغْـرَمُ
وَالْمَـالُ يُـورَدُ كُلُّهُ قَشْتَالَـة وَالْجُنْـدُ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّـةُ تَسْلَمُ
وَذَوُو التَّعَيُّنِ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلِـمُ إِلاَّ مُعِـينٌ فِي الْفَسَـادِ مُسَلِّـمُ
أَسَفِي عَلَى تِلْكَ الْبِـلاَدِ وَأَهْلِهَا اللهُ يَلْطُفُ بِالْجَمِيـعِ وَيَرْحَـمُ.

تحسّر الشّاعر بشدّة على ما آلت إليه حال الأندلسيّين في ذلك العهد من الضّعف والهوان والفساد. لقد أصبحت الرّعيّة بين مطرقة الرّوم وسندان الحكّام؛ فالرّوم يغيرون ويسبون ويغنمون ويقتطعون الأراضي، وحكّام الأندلس عاجزون عن المقاومة والدّفاع عن الأرض والأعراض، ولكنّهم حريصون على ابتزاز الأموال من الرّعيّة وتقديمها للرّوم مداراة لهم.

كان الشّاعر صادقاً في تصوير حال الأندلسيّين، وكشف مساوئ حكّامهم، وإبراز مظاهر الفساد في بلادهم؛ ولذلك عندما اطّلع حاكم بلده على الأبيات بكى، وقال: « صدق رحمه الله تعالى، ولو كان حيّا ضربتُ عنقه» [90].

وما يمكن استخلاصه، في الأخير، هو أنّ هجاء الشّعراء للحكّام في الأندلس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالانحطاط السّياسي أثناء تولّي الحكّام الضّعفاء،

وقيام الفتن بين الأندلسيّين. وينقسم قسمين: قسم جنح فيه الشّعراء إلى التّخصيص، وقسم جنحوا فيه إلى التّعميم.

فأمّا القسم الأوّل فظهر في آخر عصر الإمارة الأمويّة، وفي عهد الدّولة العامريّة والفتنة البربريّة، وفي هذا القسم هجا الشّعراء حكّاماً معيّنين (معروفين)، مركّزين في أهاجيهم على قبح سير أولئك الحكّام، وإخفاقهم في الاضطلاع بمسؤوليّاتهم لضعفهم وعدم كفاءتهم. وتميّزت نصوص هذا القسم، في الأغلب، بالقِصَر، وبساطة التّعبير، والإفحاش، والتّقريريّة، وضيق الخيال.

وأمّا القسم الثاني فظهر، بالأخصّ، في عصر ملوك الطّوائف، وفيه أنحى الشّعراء بالذّمّ على الملوك، ناعين عليهم ولوعهم باللّهو والمجون، والتّأنّق في البناء، والاستنامة إلى اليهود والنّصارى، والجري وراء الألقاب السّلطانيّة الضّخمة. وبالجملة، نعوا عليهم ركونهم إلى حياة الدّعة، وتفريطهم في مسؤوليّاتهم نحو رعاياهم، ومقوّمات وجودهم وسيادتهم وعزّتهم. وتميّزت نصوص هذا القسم، على عكس القسم الأوّل، في كون قائليها معروفين، في الأغلب، وفي طول النّفس (كثرة الأبيات)، وسموّ اللّغة، وجودة الأسلوب.

ولتلك النّصوص الهجائيّة، على اختلاف أنواعها، أهميّة كبيرة، فبالإضافة إلى قيمتها الأدبيّة والفنيّة، لها قيمة توثيقيّة (تاريخيّة) جليلة، قد لا نجدها في أغراض الشّعر الأندلسيّ الأخرى. فهي تمدّنا بمعلومات قيّمة عن سير الحكّام في مراحل مختلفة من وجود العرب والمسلمين في الفردوس المفقود، الأندلس.

الهوامـــش:

(1) نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق إحسان عبّاس. ط 1؛ دار صادر، بيروت– لبنان، 1388 هـــ/ 1968 م، م 1، ص 222.

(2) هو أبو عليّ إدريس بن اليماني العبدري اليابسي، نسبة إلى مدينة يابسة (Ibiza) الإسبانية. من أدباء القرن الخامس الهجري، أصله من قسطلّة الغرب، ونشأ بمدينة دانية (Dénia)، وفيها علا نجمه واشتهر. له شعر في أغراض شتّى وخاصّة المدح. توفي سنة 470 هـــ/1077 م. راجع: الذّخيرة، ق 3، م 1، ص 336، والمغرب، ق 1، ص 400، ونفح الطِّيب، م 3، ص 190.

(3) المقري، نفح الطّيب، م 3، ص 190. وراجع: الذّخيرة، ق 3، م 1، ص 339.

(4) هو الصُّمَيْل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن. وقيل: الصّميل بن حاتم بن عمرو بن جندع بن ذي الجوشن، مضري من قيس. دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر، وشارك في الفتنة التي اشتعلت بين المضريّة واليمنيّة في عصر الولاّة. ذكره المقري في (نفح الطّيب، م 3، ص 53) وقال: إنّه « كان شاعراً، كثير السّكر، أُميّاً لا يكتب. ومع ذلك انتهت إليه رئاسة العرب بالأندلس، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أُميّة». قتل الصّميل في سجن عبد الرّحمن الدّاخل سنة 141 هـــ/ 758 م. للتّوسّع راجع: البيان المغرب، ج 2، ص 34؛ ونفح الطّيب، م 1، و 3 في صفحات متفرّقة.

(5) هو أبو الأجرب جعونة بن الصّمّة الكلابي، الملقّب بـــ (عنترة الأندلس). من شعراء الأندلس في عصر الولاّة. راجع: جذوة المقتبس، ج 1، ص 293 (ترجمة رقم 362)؛ والمغرب، ق 1، ص 131؛ ونفح الطّيب، م 3، ص 177، و 255.

(6) ابن سعيد (أبو الحسن عليّ بن موسى)، المغرب في حلى المغرب. تحقيق شوقي ضيف. ط 3؛ دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ق 1، ص 131.

(7) هو أبو إسحاق إبراهيم بن حجّاج بن عُمَيْر بن حبيب اللّخميّ. من كبار الثوّار القائمين على السّلطة الأمويّة في عهد الأمير عبد الله. توفي سنة 288 هـــ/ 901 م. راجع: الحلّة السّيراء، ج 2، ص 376، والبيان المغرب، ج 2، ص 125، ونفح الطّيب، م 3، ص 140، وغيرها.

(8) هو أبو عبد الله محمّد بن يحيى بن زكريا، و (القلفاط) لقب عرف به. اشتهر بحفظه اللّغة، وتبحّره في النّحو، وقول الشّعر ولا سيّما الهجاء. توفي سنة 302 هـــ/915 م. للتّوسّع راجع: طبقات الزّبيدي، ص 278، وجذوة المقتبس، ج 1، ص 160 (ترجمة رقم 165)، والمغرب، ق 1، ص 111، وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، ص 176، ومختارات من شعر الأندلس، ص 88، وغيرها.

(9) ابن سعيد، المغرب، ق 1، ص 111. وراجع: الحلّة السّيراء، ج 2، ص 377، والبيان المغرب، ج 2، ص 128.

(10) هو أبو المخشي عاصم بن زيد بن يحيى التّميميّ. من شعراء عصر الإمارة المشهورين بالهجاء. ذكره أبو عامر ابن شهيد في كتابه (حانوت عطّار)، وممّا قال عنه: «وأمّا أبو المخشي فإنّه قديم الجود

والصّنعة، عربي الدّار والنّشأة، وإنّما تردّد بالأندلس غريباً طارئاً، وهو من فحول الشّعراء القدماء المشهورين». (نقلاً عن: بغية الملتمس، ص 513). توفي حوالى 180 هـ/ 796 م، على عهد الأمير الحكم بن هشام. للتّوسّع راجع: تاريخ ابن القوطيّة، ص 56، وبغية الملتمس، ص 513 (ترجمة رقم 1543)، والمغرب، ق 2، ص 123، والأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 98، ومختارات من شعر الأندلس، ص 41، وغيرها.

(11)،(12) ابن سعيد، المغرب، ق 2، ص 124.

(13) هو أبو بكر محمّد بن عمّار بن الحسين بن عمّار المهريّ (422– 477 هـ/ 1031– 1084 م). من فحول شعراء الأندلس وكبار وزرائها في عصر ملوك الطّوائف. للتّوسّع راجع: القلائد، ص 93، والذّخيرة، ق 2، م 1، ص 368، ونفح الطّيب، م 1، و 4 في صفحات متفرقة، وغيرها.

(14) راجع خبر قتله في: الذّخيرة، ق 2، م 1، ص 429، و المغرب، ق 1، ص 390، نفح الطِّيب، م 4، ص 212.

(15) هو أبو محمّد الزّبير بن عمر، أمير قرطبة في عصر المرابطين. ذكره العماد الأصفهاني في (الخريدة، ج 2، ص 259)، وقال إنّه استشهد سنة 537 هـ في حرب الفرنج، في موضع يعرف بـ (وادي الدّروع).

(16) هو أبو بكر محمّد بن أحمد بن محمّد الأنصاريّ الإشبيليّ. شاعر وشّاح اشتهر بالهجاء. ألهج بهجاء أمير قرطبة الزّبير بن عمر إلى ظفر به وقتله، وكان ذلك على الأرجح سنة 530 هـ/ 1135 م. للتّوسّع راجع: المغرب، ق 2، ص 127، و نفح الطّيب، م 3، ص 489، و م 7، ص 7، وتاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطّوائف والمرابطين، ص 145 وغيرها.

(17)، (18) رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق إحسان عبّاس. نشر مكتبة الخانجي بمصر، (د.ت)، ص 65.67. نقلاً عن: تاريخ النّقد الأدبي في الأندلس، لمحمّد رضوان الدّاية. ط 2؛ مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1401 هـ/ 1981 م، ص 311–312.

(19) الإغزال والرّقيق كذا وردت، ولعلّ الصّواب: الأغْزَال الرّقيقة (جمع الغَزَل، أي النّسيب والتّشبيب الرّقيق).

(20) الحشوش: جمع مفردها الحشّ، وهو الكنيف والمتوضّأ.

(21) رسائل ابن حزم الأندلسي، ص 312.

(22) تحقيق إحسان غبّاس. ط 1؛ الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا- تونس، 1981 م، ق 1، م 1، ص 18.

(23) لعلّ الصّواب: لا عَتْبَ.

(24) ابن بسّام الأندلسي، الذّخيرة، ق 1، م 1، ص 544.

(25)،(26) المرجع نفسه، ق 1، م 1، ص 547.

(27) المرجع نفسه، ق 1، م 1، ص 544.

(28) من لاميّة النّجاشي الحارثي في بني العجلان قوله: وما سُمّيَ الْعَجْلانَ إلاّ لقِيلِهم خُذِ الْقَعْبَ واحْلُبْ أيّها العبدُ واعْجَلِ

(29) من أهاجي الحطيئة في الزّبرقان سينيّته التي منها قوله: دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيَتِها واقْعُدْ فإنّك أنتَ الطّاعمُ الكاسي.

(30) من ذلك قوله في علقمة بن علاثة وقومه: تَبيتون في المشتى مِلاءً بطونكم وجاراتكم غَرْثَى يبتنَ خَمائصا

(31) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 2، م 1، ص 414.

(32) راجع: محنة العرب في الأندلس، لأسعد حومد. ط 1؛ المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت– لبنان، 1400 هـ/ 1980 م. ص 157.

(33) محمّد محمّد حسين، الهجاء والهجّاءون في الجاهليّة. ط 4؛ دار النّهضة العربيّة، بيروت– لبنان، 1391 هـ/ 1971 م. ص 137.

(34) راجع: الهجاء في الأدب الأندلسي، لفوزي سعد عيسى. ط 1؛ دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 37–38.

(35) ابن سعيد، المغرب، ق 1، ص 111.

(36) ابن عِذَارِي المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال. ط 2؛ دار الثّقافة، بيروت– لبنان، 1400 هـ/ 1980 م، ج 2، ص 121.

(37) اختلف المؤرّخون في تحديد سنّ هشام (المؤيّد) بن الحكم (المستنصر) حين مبايعته بالخلافة. ويبدو أنّ الأقرب إلى الصّواب أنّه كان ابن اثنتي عشرة سنة، كما ذكر ابن سعيد، أو إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، كما ذكر ابن عذاري المراكشي؛ وذلك لأنّ ابن الفرضي، وهو من أقدم المؤرّخين ذكر أنّ هشاماً ولد في جمادى الآخرة من سنة 354 هـ. راجع: تاريخ ابن الفرضي، ج1، ص 32.

(38) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 602.

(39) مكان الحذف كلمة بذيئة مفهومة من السّياق والقافية.

(40) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 2، ص 280.

(41) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 603.

(42) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 2، ص 278.

(43) المشاقص: جمع مفرده المِشْقَص، والمشقص: سهمٌ فيه نصل عريض يُرمى به الوحش.

(44) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 4، م 1، ص 61.

(45) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 397–398.

(46) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 2، ص 280.

(47) راجع، مثلاً، للوقوف على حقيقة ذلك، وصيّة الحاجب المنصور محمّد ابن أبي عامر، وهو على فراش الموت، لابنه عبد الملك وغلمانه في: الذّخيرة لابن بسّام، ق 4، م 1، ص 77–78.

(48) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 2، ص 281.

(49) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 591.

(50) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 3، ص 74.

(51) المرجع نفسه، ج 3، ص 80.

(52) المرجع نفسه، ج 3، ص 63.

(53) المرجع نفسه، ج 3، ص 80.

(54) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 426–427، وص 577.

(55) الأجمّ: الكبش الذي لا قرن له، وعكسه ذو القرون.

(56) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 3، ص 80.

(57) المرجع نفسه، ج 3، ص 76.

(58) المقري، نفح الطّيب، م 1، ص 429.

(59) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 3، ص 80.

(60) يقول الله عزّ وجلّ في الآية عشرين من سورة الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾.

(61) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 3، ص 147.

(62) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 2، م 2، ص 562.

(63) العلوج والأعلاج والعِلَجَة: جمع العِلْج، وهو الرّجل القويّ الضّخم من كفّار العجم.

(64) الأعور الدّجال: يُزعم أنّه شخص حيّ، أعور، له قدرات عجيبة، مختفي في إحدى الجزر، تساعده مخلوقات غريبة تسمّى (الجسّاسة). يظهر قبل عودة المسيح عليه السّلام، ويثير فتنة عظيمة تعدّ من فتن آخر الزّمان. للتّوسّع راجع: «**نقد أسطورة الأعور الدّجّال في التراث السُّنّي والشّيعي**»، تأليف **فادي كمال الصبّاح**، منشورة في الشّبكة العنكبوتيّة، بتاريخ 2012.6.05، على الرّابط التّالي: http://www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?aid=310550

(65) أخبار وتراجم أندلسيّة،(مستخرجة من معجم السّفر للسِّلَفي، ت 576 هـ)، تحقيق إحسان عبّاس. ط 1؛ دار الثّقافة ، بيروت– لبنان، 1963 م ص 37–38.

(66) قاعون: اسم جبل شاهق يُرى من مسافة بعيدة، يقع بالقرب من مدينة دانية (Dénia) بجنوب شرقي إسبانيا.

(67) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 3، ص 265. وراجع: دولة بني زيري ملوك غرناطة، لإسماعيل العربي، ص 81–120.

(68) المرجع نفسه، ج 3، ص 266.

(69) راجع الدّراسة القيّمة التي كتبها الدّكتور الطّاهر أحمد مكي عن هذه القصيدة في: دراسات أندلسيّة في الأدب والتّاريخ والفلسفة. ط 3؛ دار المعارف، القاهرة، 1407 هـ/1987 م، ص 50–76.

(70) إميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة الطّاهر أحمد مكّي. ط 3؛ دار المعارف، القاهرة، 1403 هـ/1993 م، ص 97.

(71) ديوان أبي إسحاق الإلبيري. تحقيق محمّد رضوان الداية. ط 1؛ مؤسّسة الرّسالة، بيروت– لبنان، 1396 هـ/ 1976 م، ص 96–100.

(72) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 2، م 1، ص 769.
(73) إميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص 98.
(74) الطرايسي أحمد أعراب، «الأصوات النّضالية والانهزاميّة في الشّعر الأندلسي». مجلّة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، (أبريل – مايو– يونيو 1981 م)، م 12، ع 1. ص 135.
(75) أخبار وتراجم أندلسيّة، ص 83–84.
(76) مكان الحذف كلمة بذيئة مفهومة من الكلمة التي قبلها، ومن السّياق والقافية.
(77) أخبار وتراجم أندلسيّة، ص 83.
(78) معجم السّفر للسّلفي (مخطوط)، الورقة 265. نقلاً عن: الهجاء في الأدب الأندلسي، لفوزي سعد عيسى، ص 58.
(79) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مُعلّى البُرياني، نسبة إلى حصن بُريانة (Burriana)، من شعراء عصر ملوك الطّوائف الجوّالين. اشتهر بمدح أحمد (المقتدر) بن سليمان بن هود ملك سرقسطة (438–474 هـ/1046–1081 م). للتّوسّع راجع: الذّخيرة، ق 3، م 2، ص 840، والمغرب، ق 2، ص 457.
(80) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 3، م 2، ص 850، ونفح الطّيب، م 4، ص 448. ؟
(81) الطّاهر أحمد مكي، دراسات أندلسيّة في الأدب والتّاريخ والفلسفة، ص 65.
(82) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 1، م 2، ص 885. ؟
(83) المقري، نفح الطّيب، م 4، ص 108.
(84) العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمّد بم محمّد)، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس). تحقيق آذرتاش آذرنوش، تنفيح محمّد المرزوقي ومحمّد العروسي المكوي والجيلاني بن الحاج يحيى. ط 1؛ الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1971-1972، ق 2، ص 187.
(85) المقري، نفح الطّيب، م 4، ص 108. وراجع: الذّخيرة، ق 2 ، م 1، ص 250، والمغرب، ق 2، ص 21.
(86) السَّفَط: وعاء من أغصان الشّجر أو القصب توضع فيه الفاكهة، ويجمع على أسفاط.
(87) ابن بسّام، الذّخيرة، ق 2، م 1، ص 256–257.
(88) بحتاً: البحت: الخالص، الصِّرْف.
(89)،(90) المقري، نفح الطّيب، م 4، ص 467.

المراجـــع:

(تضمّ هذه القائمة المراجع التي أُحيل عليها القارئ ولم تُذكر بياناتها كاملة في الهوامش)
أوّلا– القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
ثانياً– المراجـــع:
1– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، لأحمد هيكل. ط 1؛ دار المعارف، القاهرة، 1985 م.

2- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، للضبّي (أحمد بن يحيى، ت 599 هـ/ 1202 م). مطبعة روخس، مدريد، 1884 م.
3- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، لإحسان عبّاس. ط 6؛ دار الثّقافة، بيروت- لبنان، 1981 م.
4- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، لإحسان عبّاس. ط 6؛ دار الثّقافة، بيروت- لبنان، 1981 م.
5- تاريخ افتتاح الأندلس، لابن القوطيّة (أبي بكر محمّد بن عمر، ت 367 هـ/977 م)، تحقيق إبراهيم الأبياري. ط 1؛ دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللّبناني، بيروت- لبنان، 1402 هـ/1982 م.
6- تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي (أبي الوليد عبد الله بن محمّد، ت 403 هـ). تحقيق روحية عبد الرّحمن السّويفي. ط 1؛ دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، 1417 هـ/ 1997.
7- تاريخ النّقد الأدبي في الأندلس، لمحمّد رضوان الدّاية. ط 2؛ مؤسّسة الرّسالة، بيروت- لبنان، 1401 هـ/ 1981 م.
8- جذوة المقتبِس في تاريخ علماء الأندلس، للحميدي (أبي عبد الله محمّد بن أبي نصر، ت 488 هـ/1095 م). تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 2؛ دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللّبناني، بيروت- لبنان، 1403 هـ/ 1983 م، ق 1.
9- الحلّة السّيراء، لابن الأبّار (أبي عبد الله محمّد بن عبد الله، ت 658 هـ/1260 م). تحقيق حسين مؤنس، ط 1؛ الشّركة العربيّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1963 م.
10- دولة بني زيري ملوك غرناطة، لإسماعيل العربي. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1982 م.
11- طبقات النّحويّين واللّغويّين، للزّبيدي الأندلسي (أبي بكر محمّد بن الحسن، ت 379 هـ/ 990 م)، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. ط 2؛ دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
12- قلائد العقيان في محاسن الأعيان (مصوّرة عن طبعة باريس)، للفتح بن خاقان. تقديم محمّد العنّابي. ط 1؛ منشورات المكتبة العتيقة، تونس، 1386 هـ/ 1966 م.
13- مختارات من شعر الأندلس، لشاكر الفحّام. ط 1؛ منشورات جامعة دمشق، 1399 هـ/1979 م.